العـدمية الـجديـدة

من العقل الإرهابي إلى العقل التدميريّ

• د. رسول محمد رسول

شهد

القرن العشرون تداول مفاهيم كثيرة تمَّ الاشتغال بها في سياقات ثقافية وفكرية وسياسية ومجتمعية عديدة في الفضاء المعرفي العربي.

وهكذا هو الأمر مع مفاهيم عدَّة مثل: التبشير، الاستعمار، الغزو، الاحتلال، العَمالة، التبعية، التحرُّر، الاستقلال، النَّكسة، النَّكبة، الانتفاضة، التحديث، التنمية، وغيرها من المفاهيم التي شغَلَت وشغَّلت الوعي العربي، ودخلت في نسيج إنتاجه الفكري، وفي حركة المجتمعات العربية.

في القرن العشرين، كان «العقل» حاضراً في الإنتاج الثقافي والفكري والفلسفي العربي، بوصفه أحد المفاهيم المهمة، وكان له حضوره الكبير في النصف الثاني من القرن العشرين وما بعده من سنوات القرن الحادي والعشرين من خلال بعض المشروعات الثقافية والفكرية والفلسفية التي عمَّرها بعض المثقَّفين والمفكِّرين والمشتغلين في الحقل الفلسفي والفكري العربي.

هذا يؤكِّد على أن مفهوم العقل حازَ على اهتمام نقدي كبير من جانب المفكِّرين العرب بعد تغييب طويل الأمد مُني به الاهتمام بهذا المفهوم في الحراك الثقافي العربي الحديث، ونقصدُ بـ «الاهتمام النَّقدي» ذلك الاشتغال التحليلي على مفهوم العقل، وعلى جملة علاقاته التي تظهر في العلوم والمعارف وبقية الحقول الثقافية، ولا نعني بالاهتمام النَّقدي عملية إصدار حكم قيمة من حيث الصحيح والخطأ، أو الصدق والكذب أو المفيد والضار.

في ضوء ذلك، شهدَ الوعي العربي تداولات كثيرة لمفاهيم تركيبية للعقل مثل: «العقل النَّهضوي»، «العقل الماضوي»، «العقل التركيبي»، «العقل التحليلي»، «العقل البنّاء»، «العقل المستقيل»، «العقل الاستشراقي»، «العقل الاستشرافي»، «العقل السبراني»، «العقل التداولي»، «العقل الاستعماري»، «العقل التكريسي»، «العقل المكوِّن»، «العقل المكوَّن»، «العقل التوليدي»، «العقل السياقي»، «العقل الحركي»، «العقل الإشراقي»، «العقل المشرقي» مقابل «العقل المغربي»، «العقل الشرقي»، «العقل الغربي»، «العقل الآسيوي»، «العقل الإسلامي»، «العقل المتأسلم»، «العقل الرجعي»، «العقل التقدُّمي»، «العقل العربي»، «العقل التحديثي»، «العقل الحداثي»، «العقل ما بعد الحداثي»، «العقل التفكيكي»، «العقل العدمي»، «العقل التكويني»، «العقل العملي»، «العقل الرياضي»، «العقل الطبيعي»، «العقل المركَّب»، «العقل المرجعي»، «العقل المركزي»، «العقل الهامشي»، إلى غير ذلك من المسميات التركيبية التي كانت تظهر في كل ما هو مقروء ومرئي ومسموع من وسائل التوصيل والاتصال والتعارف.

بالفعل، إنها ذخيرة رائعة من الاشتغال والنَّظر والتأمُّل في العقل هذه الفكرة التي صار الوعي العربي المعاصر نهاية القرن

---

* أستاذ جامعي ومفكر عراقي

العدمية الجديدة

من العقل الإرهابي إلى العقل التدميريّ

العشرين وبداية القرن الحادي والعشرين يتداولها ويفكِّر فيها في ظلِّ عصر يرى ويلمس الناس فيه أفعالاً هي ليست سوى تعبير عن منطق عقلي، فنحن لا نعيش في عصر الأسطورة، ولا في عصر ظهور الأنبياء، ولا في عصر السحرة، ولا في عصر أصحاب المعجزات من البشر، إنما نعيش عصراً لا يفكر فيه الناس إلا بمنطق مداره العقل، ومطيته العقل، وأداته العقل، فلا فعل بدون منطق إطاره العقل.

نحن نرى ونلمس، مثلما نُحس ونشعر، أنَّ دماراً هائلاً يحدثه بعض الناس فينا، وهو دمار يؤسِّس كيانه وفاعليته على «منطق عقلي» يصبح فيه «العقل: أداة لتكريس مواقف وأفكار ورؤى مفكَّر فيها على أنها أساليب تداول في المجتمع، والعقل بدوره يتلبَّس شكلاً من المعرفة أو الإيمان أو الدِّين أو العقيدة أو الأيديولوجيا أو الفن أو أي شكل أو جنس من أجناس التعبير والتوصيل لتكريس خطابه في المجتمع، وإيصال رسالته إليه بغية التأثير فيه والتحكُّم بأوضاعه.

في جزء من ذلك، نلاحظ أفعالاً يومية تشي بكوارث فادحة، بل كوارث لا تكرِّس سوى الويلات في حياة مجتمعاتنا. وعند تحليل فعل هذه الكوارث نستكشف أنها تستند إلى «عقل تداولي» يستبطن طاقة تدميريَّة هائلة، وقدرة على الفتك والتفكيك المُضاعف، وعلى تأكيدات هائلة لإحلال الظلام في الأرض وإطفاء النور فيها؛ فما هو هذا العقل؟.

إنهُ العقل التدميري **Destructiveness Reason**، ولكن، قبل أن نذهب إلى تعريف هذا العقل، لا بدَّ أن نُشير إلى أن بعض الدارسين الغربيين والعرب يُرجعون أفعال هذه الكوارث الفادحة إلى ما يسمونه بـ «العقل الإرهابي **Terror Reason**».

جاء ذلك بُعيد استفحال العُنف الدموي في شكله التدميري الفادح في نهاية القرن العشرين، وفي مطلعه أيضاً. وإلى جانب ذلك، أخذت بعض المفاهيم التي ظهرت في الأدبيات المعنية بالإرهاب المتأسلم، تظهر على ساحة النقاش والتداول، ومن ذلك مفهوم «فكر الإرهاب **Terror Mindset**» الذي استخدمه الدكتور بريوس هوفمان، المتخصص في دراسات الإرهاب المعاصر بجامعة جورج تاون، في كتابه (**Inside Terrorism**) (1).

ومن قبل كان المفكِّر الفرنسي جان بودريار قد استخدم مفهوم (روح الإرهاب **Esprit Terrorism**) أو «ذهنية الإرهاب» (2) في مقال له يحمل العنوان نفسه ويتحدَّث فيه عن طبيعة ما يفكِّر فيه الإرهابيون استناداً إلى أفعالهم الميدانية، خصوصاً إثرَ حادث الحادي عشر من سبتمبر **2001**. في حين ناقش المفكِّر المصري السيد ياسين العلاقة بين مفهوم العقل التقليدي والعقل الإرهابي في مقال له بعنوان (أزمة العقل الإرهابي) (3).

أم نحن فنميز بين مفهوم «الفكر الإرهابي **Terror Mindset**» الذي يضمُّ مجموعة المسائل والقضايا والنظريات المضامينية التي ينطلق منها الإرهابيون في عملهم، ويقترب منه مفهوم «الخطاب الإرهابي **Terror Discourse**»، ومفهوم «العقل الإرهابي» الذي نتحفَّظ عليه، ويمثل القدرة الذهنية التي يفكِّر الإرهابيون بها بوصفها أداتهم في التحليل والتركيب، كذلك بين «عقل الإرهابي **Terrorist Reason**»، و«فكر الإرهابي **Terrorist Mindset**».

إنَّ استعمال المثقَّفين والباحثين المتخصِّصين لهذه المفاهيم، على هامش أحداث الحادي عشر من سبتمبر **2001**، يمثل مطلباً ضرورياً في مجال دراسات الإرهاب المعاصرة، إلا أنَّ ثمة ما هو أبعد من ذلك، ألا وهو الذهاب إلى القاسم المشترك لفعل كل هذه المفاهيم وسياقاتها النظرية ومدلولاتها الخطابية، أي أن علينا أن نذهب إلى العُنف الإرهابي الذي ينطلق من نزعة تدميريَّة فادحة تؤسِّس له كيانه وحركته وتأثيره.

هذه النزعة التدميريَّة **Demolition** البادية للعيان هي العنصر الجوهري المشترك لدى أكثر الحركات الإرهابية فتكاً، سواء تلك التي تلبس رداء الدين وتقاتل باسمه، أو تلك التي تلبس رداء الأيديولوجيات الوضعية أو العَلمانية أو الليبرالية التي عاثت، بدورها، قتلاً بأبناء مجتمعاتنا كما هي تجاربها المتعدِّدة الأشكال التي ظهرت خلال القرن العشرين وما بعده.

بدلاً من الحديث عن عقل الإرهاب أو عقل الإرهابي، وما يحتمل سقوطنا في حبائل مصطلح الإرهاب أو الإرهابي، وهي حبائل شائكة بالطبع، نعتقد أن التأمُّل في الفعل الناتج عن النزعة التدميريَّة سيوصلنا إلى منطق هذه النزعة الخاص بها، ومن ثمَّ إلى منطق التدمير كما يتجلى في فكر وخطاب وفعل التدميريين أنفسهم، فرادى وجماعات، ومن ثم سيوصلنا إلى العقل التدميري الذي يمثل الأداة الطيِّعة لهؤلاء القتلة سواء كنا نسميهم الإرهابيين أو المجرمين أو الساديين أو غير ذلك من المسميات. فما هو العقل التدميري؟.

العقل التدميري: قدرة ذهنية سلبية تنشدُ تفكيك بنية الأفكار، وتهديم ثمار العُمران، وتمزيق كينونة الإنسان، وخلخلة أنظمة

وسياقات وعلاقات الموجودات، وإحالة كل ذلك إلى هشيم مقطَّع الأوصال، مُبعثر الأشلاء، بل هو عقلٌ ينقضُّ حتى على موجوديَّة المهشَّم ذاتها بغية تفكيكها على نحو مُضاعف، وإحالتها إلى متناهيات بدائية بالية معطِّلة عن أي نشاط وفاعلية.

في فضاء العقل، نحنُ نفرِّق بين عقل بشري سام يُفكِّرُ في الوجود بمنطق تعميري وإصلاحي وجمالي وأخلاقي؛ يحتفي بالإنسان، وينظر إليه على أنه كينونة إنسانية في الأصل والأساس، وعقل بشري منحط يُفكِّرُ في الوجود بمنطق مدنَّس وفاسد وتخريبي وتهديمي وإظلامي غير أخلاقي؛ منطق اختزالي يكنُّ الكره المبيَّت والمبرمج للإنسان، وينظر إليه على نحو جهويٍّ ليتغافل عن الكينونة الإنسانية التي هي أصل الإنسان الجميل وجذوته الحقَّة وميسمه المجتمعي.

إنَّ العقل التدميري عريق وقديم في وجوده قِدَم الفعل البشري الأول، عقل جرَّبته أجيال وأجيال من الطغاة التدميريين عبر التاريخ . ليس هذا فقط بل نعتقد أن أي فعل كارثي مهول مرَّ عبر التاريخ ما هو إلا إنتاج لفاعلية وسلوك وتأثير هذا العقل!.
لستُ معنياً هنا بمتابعة تاريخ الكوارث التي كرَّسها هذا العقل عبْرَ التاريخ؛ فذلك شأن المؤرِّخين كالعادة؛ لكن هذا العقل أدّى، وعلى قدر ما جاد، إلى كثير من الكوارث الفادحة في راهننا المعاصر، وهي كوارث كفيلة بتشخيص معالم هذا العقل وطبيعته وأساليبه وطرق اشتغاله في أكثر من مكان بعالمنا المعاصر، ومنه عالمنا العربي والإسلامي، الذي شهد في الربع الأخير من القرن العشرين أعتى الكوارث جرّاء ما أقبل عليه دُعاة هذا العقل وأزلامه وعمّاله وكتائبه وجيوشه المنظَّمة.

ليست جماعات العُنف باسم الدين والعقيدة الإسلامية أو جماعات الإسلام السياسي المتطرِّفة وحدها هي التي تشتغل بمفهوم العقل التدميري، إنما هناك جماعات كثيرة تكرِّس أيضا الأفعال الناتجة عن توظيف العقل التدميري في الحياة، جماعات وأحزاب ومنظمات وتكتلات وأنظمة حكم وحكومات ودول غير إسلامية.

إنَّ فعل هؤلاء مرفوض، وتدينه شرائح غالبة في المجتمعات العربية والإسلامية والعالمية، لكن تبقى مَهمة المثقَّفين والمفكِّرين والفلاسفة، وكل المشتغلين في حقول المعرفة، القديمة والجديدة، الكلاسيكية والمستحدثة، ودُعاة السَّلام والأمن والحرية والعدالة والطمأنينة في الحياة؛ تبقى مهمتهم التصدِّي النَّقدي لهذا العقل التدميري ولكل معطياته ومظاهره بالتحليل والتفكيك المنهجي البنّاء في روحه الإيجابية والحضارية والإنسانية للحد من فاعليته وتأثيراته السلبية والكارثية في مجتمعاتنا المعاصرة بكل تشكلات ظهورها، وإيقاف نزيف الكوارث الفادحة التي يكرِّسها هذا العقل، وما زال.

ما هو مفيد هنا القول إنَّ نقدنا للعقل التدميري بكل أشكال ظهوره، ونقدنا لـ «العقلنة التدميريَّة» بكل أشكال ظهورها، لا يعني أننا سنضحِّي بالعقل، وننظرُ إليه على أنه أداة خائنة للبشر، ولا يعني أننا سنتخلى عن «العقلنة الحقيقية» أو «العقلنة الإصلاحية ذات الثمار التعميرية» لننظر إليها على أنها أداة غير مجدية في التنمية والبناء والتقدُّم، بل إننا لا بدَّ أن نتخلَّص من التوظيف الفاسد والمدمِّر لهذا العقل وهو يقضي على نور الحياة وعلى مستقبل الأجيال، ونتخلَّص من التوظيف الفادح للعقلنة التدميريَّة وهي تنهش الحاضر لتجعل مستقبلنا ضعيفاً وخاوياً من أي أمل مُشرق بالعيش الآمن.

الهوامش

(1) Bruce Hoffman: Inside Terrorism, Published By Columbia University Press, 2006.

(2) De Jean Baudrillard: La Esprit Du Terrorisme, Copyright @ Editions Galiliee 2002.

تمت ترجمة مقال بودريار إلى اللغة العربية بعنوان «روح الإرهاب»، وصدر في كتاب بالعنوان ذاته إلى جانب مقالات أخرى للكاتب بترجمة الأستاذ بدر الدين عردوكي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة 2005. وهناك ترجمة أخرى للمقال بعنوان «ذهنية الإرهاب» في كتاب مشترك مع الفيلسوف الفرنسي جاك دريدا في كتاب يحمل العنوان ذاته بترجمة الأستاذ بسام حجار، المركز الثقافي العربي، بيروت ـ الدار البيضاء 2003.

(3) السيد ياسين: أزمة العقل الإرهابي، (مقال)، جريدة عُمان، الأربعاء 4 مايو 2005.

كان خاتم أبي نواس قد نقش عليه:
"إخوان هذا الزمان دودٌ ووردٌ وزوان"